

كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان

دراسة تاريخية حول مكانة كتاب الطبقات في تاريخ الثقافة
السودانية وعلاقته بالهولوكور

أ. عثمان جمال الدين *

كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان ألفه العالم السوداني الفقيه محمد النور بن ضيف الله الذي ينتمي إلى طائفة من الجعليين يقال لهم (الضيفلاب) وكانوا قد سكنوا (حلفاية الملوك) والكتاب سيرة شخصية لحوالي مائتين وستين شيخاً من الزهاد والصالحين الذي عاشوا في خلال فترة مملكة الفونج (١٥٠٥ - ١٨٢٠) وقد اكتملت كتابة هذه الموسوعة التي تعني بالتراجم الذاتية لرجال الدين والأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في آخر أيام مملكة الفونج تقريباً (١) ويذكر البروفيسور يوسف فضل :

" والكتاب في معظمه مدون بلهجة سودانية دارجة وقصد المؤلف بذلك أن يقربه إلى إفهام الأكثرية الساحقة من السودانيين الذين لم تكن لديهم في ذلك الحين الوسائل الكافية لفهم العربية الفصحى والإقبال عليها (٢) .

ولقد درس الكتاب ونقله إلى اللغة الإنجليزية - ماكنايل - وضمنه كتابه (تاريخ العرب في السودان) (٣) في العشرينات من هذا القرن ، ولأن للكتاب أهميته التاريخية فقد اهتم به عدد من الباحثين الغربيين (٤) والشرقيين باعتباره الكتاب السوداني الوحيد المرجعي في تاريخ علماء مملكة الفونج ولاحقاً دفتيه علي معلومات هامة ودقيقة عن حياة السودانيين الدينية والعلمية والأدبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ومؤثراتها التي أسهمت في تشكيل ملامح الشخصية السودانية كما يقول محمد المكي إبراهيم :

* أستاذ مساعد كلية الموسيقى والدراما ، جامعة السودان

" إن دولة الفونج قد أسهمت إسهاما حاسما في صياغة الفكر السوداني وتقرير اتجاهاته وسوف يظل تأثيرها واضحا ملموسا مهما اتسعت المسافة بينها وبين أجيال السودانيين، فما زال جيلنا الحالي يعاني من التأثير الصوفي الذي جاء مع عهد الفونج (٥) . وقد أشار للكتاب وأهمية محتوياته الدكتور عبد الجميد عابدين في كتابه (تاريخ الثقافة العربية في السودان) بقوله :

إما عن عصر الفونج فقد خلف لنا وضيعف الله في كتابه الطبقات (حوالي (٢٧٠) مائتين وسبعين سيرة من علماء هذا العصر ورجال الصوفية ممن اشتهروا بين الناس إلي يومنا هذا ومنها عدد غير قليل يصلح مادة للقصاص الفني والمسرحيات (٦) .

إن الدراسة التاريخية حول مكانة كتاب (الطبقات) في تاريخ الثقافة السودانية هي مقدمة لدراسة دخول الإسلام في السودان ، فقد دخل الإسلام السودان في موجاته الأولى إلي الجزء الشمالي من السودان وادي النيل أو السودان الشرقي منذ أواسط القرن السابع الميلادي علي يد التجار المسلمين والمهاجرين العرب ، وقد تدفقت هذه الموجات عبر طرق رئيسية ثلاثة ، أولها من مصر عبر طريق وادي النيل والصحراء الشرقية ، وثاني هذه الطرق من الحجاز عبر البحر الأحمر عن طريق موانيء باضع وعيذاب وسواكن ، وثالثها من المغرب عبر أواسط بلاد السودان .

" ولقد بلغت هذه الهجرات إلي السودان ذروتها عندما اشتركت بعض هذه القبائل العربية في الحملات العسكرية المملوكية ضد بلاد النوبة المسيحية كما تبعتها هجرات أخرى بعد اضمحلال نفوذ مملكة النوبة السياسي في أواسط القرن الرابع عشر ، ونتيجة لتزايد النفوذ العربي الإسلامي صارت الأسرة المالكة مسلمة تجري في عروقتها دماء عربية بعد أن كانت نوبية مسيحية ، وقد اكتملت عناصر هذا الحدث الهام إثر استقرار بعض المجموعات العربية واختلافها وتزاوجها مع العناصر المحلية (٧) .

وفي أوائل القرن السادس عشر الميلادي عقد حلف أو ميثاق بين القبائل العربية الموجودة في السودان علي يد الزعيم عبدالله جماع شيخ قبيلة العبدلاب وبين شعب الفونج الذي يقطن الجزيرة حول سنار ومايل إليها جنوبا ، فاشترك الحليفان في مهاجمة سوبا وحصارها الذي انتهى بسقوطها وبنهاية دولتها المسيحية ، بينما كان التحول في مملكة المقررة تدريجيا ودون دماء مما أتاح للبدو الدخول عن طريق وادي النيل في هجرات متزايدة واستقروا في مسيرتهم في أرض البطانة والجزيرة ثم عبروا النيل إلي كردفان ودارفور ناشرين في هذه الأقاليم بعض سمات الثقافة العربية الإسلامية ، لم يدم هذا الحلف أو الميثاق بين العبدلاب والفونج طويلا إذ سرعان ما بسط الفونج نفوذهم علي العبدلاب ورعاياهم واتسعت رقعة مملكتهم حتي شملت أجزاء كبيرة من بلاد البجة وكردفان وظلت حدودهم الجنوبية حتي خط عرض ١٢ بينما صار العبدلاب يحكمون من قري الجزء الواقع شمال أريججي بمعاونة زعماء القبائل نيابة عن الفونج وقد ذكر بروفيسور يوسف فضل :

" شجع سلاطين الفونج والفور وملوك العبدلاب وغيرهم قدوم العلماء والفقهاء ورجال الطرق الصوفية من مصر والحجاز والمغرب ليسهموا في نشر العقيدة الإسلامية وتعميق مفاهيمها علي أسس علمية سليمة بين مواطنيهم ، وقد صادف هذا الجهد فترة الركود الفكرية التي ألت بالشرق العربي (٨) .

فقد كرس العلماء اجتهاداتهم في دراسة العلوم النقلية مكتفين باختصارها وكتابة الشروح والحواشي لها متزامنا هذا الاجتهاد مع غلبة الطرق الصوفية وسيطرتها علي حياة الناس الاجتماعية والدينية مما أدى إلي انتشار روح التقليد والانتكال ، وكان شيوخ هذه الطرق الصوفية يقدون إلي السودان بدوافعهم الذاتية أو بإيعاز وتشجيع من سلاطين السودان ، كما كانت المملكة توفد بعض السودانيين إلي الأزهر الشريف لينالوا تعليما فقهيا ، وقد عرف مقرهم في الأزهر بالرواق السناري ، وعند عودتهم صاروا قضاة شرعيين في محاكم الفونج أو معلمين مثل إبراهيم الولاد (٩) الذي عاد من مصر واستقر في دار الشايقية ثم اتجه للجزيرة ونشر الفقه علي مذهب الإمام مالك ، وكذلك أولاد جابر الآخرين (١٠) الذين كان لهم فضل في نشر الفقه والتعليم ورغم ذلك فإنهم لم يستطيعوا مجارة الطرق الصوفية في توجيه الحياة الدينية وقيادة الناس والتحدث باسمها لدي الحكام أو الشفاعة لها ، ونتيجة لهذه المكانة التي حققها رجال الطرق لأنفسهم بين الناس ولدي الحكام هيمنت الطرق الصوفية علي حياة البلاد الدينية بينما استهوت الثقافة الدينية العلمية قلة من السودانيين بينما انخرطت الأغلبية في سلك المريدين من أتباع الطرق الصوفية وفضلتها علي الطابع الفقهي ، ولعل بهذا التمازج بين المنهجين الفقهي والصوفي بين ممن جمعوا بين علمي الظاهر والباطن وضعت النواة الأولى للخصائص المميزة للثقافة الدينية في السودان ومن هذا المناخ وتحت تأثير هذه الظروف تم تأليف كتاب الطبقات ويعلم المؤلف عن مقصده بقوله :

" وبعد فقد سألني جماعة من الإخوان ، أفاض الله علينا وعليهم سحاب الإحسان وأسكننا وإياهم أعلي قراديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان أن أؤرخ لهم ملك السودان ، وذكر مناقب أوليائها الأعيان ، فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة في السنة والإلهام ، ولم يكن لأسلافنا وأسلافهم وضع في هذا الشأن ، إلا أن أخبارهم متلوة عند الخاص والعام ، منها مابلغ حد التواتر عندهم ، فأحببت أن أذكر ما اشتهر وتواتر من تلك الأخبار (١١) .

فاقتدي في تأليفه بمن تأثر من المحدثين والفقهاء والمؤرخين ممن ألفوا في التاريخ والمناقب وقد اهتدي في تراجمه بكتاب (الطبقات الكبرى) لعبد الوهاب الشعراني الذي اقتبس بعض أسلوبه خاصة عند فواتح التراجم وروي عنه كثيرا من الأخبار (١٢) وقد فصل ذلك في منهجه بقوله :

" وأردت أن أجمع هؤلاء الأعيان في معجم وأذكر العلماء علي حدة ، وعلماء التوحيد علي حدة ، وقرأ القرآن علي حدة ، والنجباء ، وأذكر الملوك والشيوخ المعتنين بأمر الدين ، والأعيان المذكورين أبينهم بحرف الهجاء (١٣) .

وقد حفظت الأيام كتاب الطبقات كاملا وفي نسخ متعددة وقد نشر في عام ١٩٢٠م في طبعتين غير محققتين علي يدي الشيخ إبراهيم صديق وسليمان أفندي داود منديل ، وقد وفق البروفيسور يوسف فضل في العثور علي عدد من النسخ وقام بتحقيقها ونشرها عام ١٩٧١ (الطبعة الأولى) .

ينقسم الكتاب إلي ثلاثة أقسام رئيسية ، يمثل القسم الأول منها خطبة الكتاب ومقاصد تأليفه ، والقسم الثاني يؤرخ في موجز مختصر لبداية مملكة الفونج الإسلامية وأوائل ملوكها وملوك العبدلاب ، فيذكر أسماء العلماء والصوفية الذين أسهموا في نشر الدين الإسلامي بطريقة منظمة ، ولم يتحدث المؤلف فيه عن (ملك السودان) كما أعلن في فاتحة الكتاب (١٤) بل اهتم بأخبار الصالحين ورجال القوم والعلماء والفقراء وقلة من القضاة والخطباء . وفي القسم الثالث ترجم نحو مائتين وسبعين شخصا .

اعتمد المؤلف في مادة كتابه علي مصدرين أساسيين ، أولهما ويسميه ماتواتر من الأخبار ، أي الروايات الشفاهية ، معتمدا علي جمع مادته القولية ميدانيا مما تناقلته الأجيال وهو خلاصة الموروث الشعبي وفي تقدير الباحث أن هذا الجمع والتحقيق مثال لكتابة السير والترجمات في مجال الصوفية إلا أن الباحثين أخذوا عليه إغفاله بعض الشخصيات الدينية في زمانه وكذلك بعض الأسر الدينية ، كما أنه أورد ترجمات مقتضبة جدا لبعض الشخصيات الهامة في ذلك العصر مثل آل عيسى الأنصاري .

ثاني مصادر الكتاب هي المصادر الخطية تشمل الإجازات التي يقدمها الأساتذة لطلابهم والفتاوي الشرعية وجوانب من السير الخاصة التي تحصل عليها المؤلف مكتوبة ، ومأثله من المؤلفات الإسلامية مثل (مختصر خليل) و (رسالة ابن أبي زيد القيرواني) و (التثاني) و (ابن الأثير) و (عبد الوهاب الشعراني) .

إن دراسة الكتاب في إطار مكانته في تاريخ الثقافة السودانية هي دراسة لذلك الحوار بين الثقافة العربية الإسلامية مع الأصول المحلية التي أنتجت لنا ألوانا من الثقافة والفكر (١٥) . لقد حفظ لنا الكتاب صورة نابضة عن حياة المتصوفة وأقوالهم وأثرهم في الحياة الاجتماعية والثقافية في ذلك العصر ، ولقد ملح محمد محمد النور ضيف الله إلي كتابين فقط في التصوف هما محصول ثلاثة القرون الأولى من بداية انتشار الثقافة العربية الإسلامية في السودان أولهما (اداب الطريق وآداب الذكر) للشيخ إسماعيل صاحب الرباية وثانيهما (صفة الفقير) لمحمد هدي ، ولغلبة روح التصوف علي الحياة الدينية وميل العلماء علي قلة الأكفاء منهم إلي الانخراط في الطرق الصوفية لم يرتفع الصراع القائم بين المتصوفة والفقهاء إلي إنتاج فكري غزير ، وتمازج وظيفتي الفقيه والصوفي قلل من أصالة ذلك الصراع حتي ماوصلنا من أمثلة له كان يعيل إلي نصرة الأولياء علي الفقهاء .

يري الباحث أن الثقافة الصوفية في السودان قد تمحورت علي شقين ، شق نظري وهو الإنتاج العلمي الصوفي المتمثل في مجموعة الكتب والأوراد والأذكار والأحزاب وقد وصف لنا

الكتاب مجموعة منها مثل (١٦) ، (الرسالة) و (مختصر خليل) و (المدونة لأسد ابن الفرات وسحنون) وشرحها لأبي عمران الفجومي و (فتح الجليل علي مختصر خليل) لمحمد بن إبراهيم التتائي و (شرح محمد عبد الباقي الزرقاني علي مختصر خليل) و (حاشية علي شرح التتائي علي الرسالة) لعلي بن محمد الأجهوري و (مختصر الأخصري في العبادات) و (حاشية علي مختصر خليل لأبي عبد الله الخراشي) كما حدثنا الكتاب عن الرياضة ومعرفة دخول الخلوات ومراتب الصوفية ، أما الشق الثاني لهذه الثقافة الصوفية فهو الجانب العملي ويتمظهر لدي طبقة الأتباع كما يذكر الدكتور عبد المجيد عابدين : " الذين كانوا يتلقون من أشياخهم التعاليم والأذكار وأساليب العبادة فينقلون ما يتلقون دون أن تكون لهم في أنفسهم ثقافة صوفية تستحق الذكر " (١٧) .

وقد كان هذا الشق يعتمد في المقام الأول علي الصلة الشخصية المباشرة والتربية الروحية التي يكتسبها التابع أو المريد كما في حالة الفقيه محمد بن الريدة العوضي (١٨) تلميذ عبد الرحمن بن أسيد (١٩) نتيجة ملازمته لشيخه قدرا من الزمن يتشرب فيها روح شيخه ويتأثر بالجو العام حوله ذلك الجو الذي يشيء بالكرامات والمجاهدة والكشف والشطح والملازمة دون أن يكون ذلك فلسفة صوفية أو منهجا شاملا للحياة ، ومن جانب آخر أشار الكتاب إلي الجانب التشريعي العام وسعي ملوك الفونج إلي تطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية في جمع الزكاة والعشور كما كان لعلمائهم أحيانا حق تنفيذ الحدود الشرعية علي الناس من ذلك ما فعله الشيخ حمد المشيخي (بإقامة حد القذف علي امرأة عندما جاعته امرأة شاكية ، وعندما رفعت زوجته الحسنة صوتها بالقرآن فأمر بضربها (٢٠) ، إلا أن هذه القضايا الفقهية العامة قليلة بالنسبة للقضايا الفقهية الخاصة بالأسرة ومشاكلها فقد صرح صاحب (الطبقات) عن ذلك بقوله :

" ويقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة ، حتي قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلم الناس العدة (٢١) .

وكان لإبراهيم بن عيود الفرضي تلميذ محمد قرم المصري دور هام في تعريف الناس بعلم المواريث (ولقب بالفرضي لأنه كان له باع طويل في الفرائض) (٢٢) ورغم ذلك فإن بعض الفقهاء يري أن معرفته الكلية لا تكتمل إلا بالتصوف مثل المسلمي الصغير الذي جمع في بداية أمره بين الفقه والتصوف ثم اختار التصوف بقوله للشيخ دفع الله العركي :

" علمي مانفعني حيث بدور مددكم " (٢٣)

إن تاريخ الدراسات الشفوية أو بدايات الإهتمام بالفولكلور السوداني يعود إلي القرن الثامن عشر وذلك بالرجوع إلي تاريخ أول مصدر مكتوب متضمنا موادا فولكلورية وهو كتاب (الطبقات) ، فقد احتوي الكتاب علي كثير من المواد الفولكلورية (قصص كرامات الأولياء وبعض القصص التاريخية وبعض الأشعار والأمثال الشعبية ومختلف ضروب الحياة الشعبية التي تمثل العصر الذي كتب فيه (سلطنة سنار أو عصر الفونج ١٥٠٥ - ١٨٢١)

قيمة الكتاب أن معظم مادته جمعت من الرواية الشفاهية لذلك كما قال الدكتور قيصر موسى :

" إن كثيرا من التراث المدون جاء من أصل شفاهي وليس بالضرورة أن تنتهي عملية التدوين هذه التداول الشفاهي للمادة المعنية إذ من الممكن أن يستمر التداول الشفاهي متوازيا مع الأشكال الثابتة المدونة) (٢٤)

ومثال ذلك نماذج الشعر الصوفي وشعر المديح والثناء وقد أكد الدكتور يوسف فضل في تحقيقه حول هذه النماذج بقوله :

" وتبين تلك النماذج أن هذه الفنون مازالت في مهدها وتتكيء علي الموروث والمحفوظ العربي في مضمونها وألفاظها (٢٥) .

ففي ترجمة العجمي بن حسونة أنه سافر إلي الحجاز وجاور بمكة وسلك في رباط العباسي وانقطع إلي الله بالذكر والعبادة فلما حج الشيخ حسن حسونة لم يسلم عليه فقيل له " لم لا تسلم عليه وهو أخيك وشيخك فقال :

نظر المحب إلي المحب سـلام

والصمت بين العارفين كلام " (٢٦) .

وجاء في هوامش المحقق لكتاب الطبقات أن البيت من بحر الكامل ولا يعرف قائله ويروي عادة بهذه الصورة .

" نظر المحب إلي المحب سلام

والصمت بين العاشقين كلام (٢٧)

ولإسماعيل صاحب الربابة بن الشيخ مكّي الدقلاشي قصائد في مدح الرسول (صلي الله عليه وسلم) وكلام بين فيه صفات الأولياء ، وألف كتابا في الطريقة وآداب الذكر وله شرح علي قصيدته في مدح النبي (صلي الله عليه وسلم) وهي قوله :

أنّي رأيت في ليلتي في منامي

خير البرية ضاحكا مستبشرا (٢٨)

وفي ترجمة عبدالقادر أبو قرون نقل لنا صاحب الطبقات جنسا من شعر المديح للشيخوخ قال " وجاء تلميذه ولد آدم إلني الشيخ صغيرون قال له يجوز له أمدح شيخي ، قال له : مثل ماتمدح الله ورسوله يجوز لك تمدح شيخك فربط قافية " .

الشيخ الدوام نور لماع

ديم من المحبة عينيه يسرقن دماع

القطب أن نهمة في الضيق سماع

مدحه جاز لي كتاب وسنه وإجماع

جنح الليل يطوف في مداين الشرق

يصبح لي يفر ملجة أب نوايبا فرق

بيضا علي عليك سلك الطريق
قيدومة الكرام العارفين الزرق
رقت سفلا وصعيد إلي واسع الأوطان
بالحبر العلي كل الأمور فطان
نسوان العرب مع العجم الرطان
ماولدت مثل أمك نقاوة بطان (٢٩)

لقد ذكر الدكتور عبده بدوي في دراسته حول هذا الشعر قائلا :

" هذا الجنس من التراث الشعبي لعصر الفونج أنه قد بدأ عاميا ثم ارتفع بعد ذلك إلي حالة من العامية والفصحى فاقدة إلي حد ما النظام الموسيقي والإحكام الإعرابي ، فالشاعر لم يكن يقود الكلمات وإنما هي التي كانت تقوده وتفرض نفسها علي قوانينه (٣٠) .
والشاهد أن الكتاب من منظور مادته الفولكلورية يذخر بقدر وأفر من هذا الجنس الذي يدور أساسا حول عنصري المدح والزئاء وبعض التهويمات الصوفية ومن الملاحظ أن جل ماقللوه كان محكوما بالضرورة بدائرة التقليد للشعر القريب من عهدهم يقول عبدالعادي الصديق :

" إن هذا اللون من الشعر يحمل إلي جانب ذلك أشكالا لاتبرز القصور اللغوي والبلاغي المتمثل في الأغلاط النحوية والتراكب السانجة (٣١) .

إلا أنه قد عبر عن أغراضه المختلفة خصوصا عندما يتكئون علي بعض شعراء الصوفية كابن الفارض علي نحو ما جاء في شطح موسي بن يعقوب
" سلام علي قوم إذا ذكر اسمهم

تهتك أستاري إليهم برجعتي

تلالات الأنوار من نحو خالقي

بوقت قيامي أو جلوس بخلوتي (٣٢) .

وقد يخفقون الشعر لقضية الترنيم والسماع فيتخففون من القافية ويشبعون الحروف كقول مكى الدقلاشي :

" الله لي عدة في كل نائبة

أقول في كل نائبة حسبي الله

يافارحا بالمعاصي عند خلوته

ما علمت بأن الشاهد الله

من يوم ماقت سموني الهائم

صابونا لسي أب جنا قايم

ياكاشر جيب السلطية

الشقدين أرفعهما إلي (٣٣)

وإذا كان أغلب ما قيل كان يدور حول السلطان والطبقة العليا والشفاعة فينسب إلي الشيخ فرح وديكتوك أبيانا للتفنير من الوقوف بأبواب السلاطين :
ياواقفا عند أبواب السلاطين

إرفق بنفسك من هم وتحزين

إلي قوله :

استغن بالله عن دنيا الملوك

كما استغني الملوك بدنياهم عن الدين (٣٤)

وفي شق آخر يذكر الكتاب بوصف دقيق للثقافة المادية مثل الصناعات الشعبية والنقود المتداولة وأنواع أدوات الطعام والشراب والأدوات الحربية والأزياء والحلي وهندسة العمارة ، بجانب عادات السكن وطريقة البناء وأسماء المدن وأسلوب تكوينها وقد استخلص الباحث منها الآتي :

جاء في ترجمة بان النقا الضرير الفضلي الجعلي :

"فإن الناس تفرقوا منه إلا الشيخ محمد ولد عبدالصديق فهو جينئذ شاب لابس قميص "علاج" وتوضاً وصلي ركعتين" (٣٥) .

والعلاج نوع من القماش مخطط (مثل قميص البيجامات) وأغلب ألوانه الأحمر والأسود وتسمى القطعة منه (قرن العلاج) وتسمى أحياناً العلجة وهي (الفركة) وقد شرح محقق الكتاب بأن الكلمة (علاج) مأخوذ من لفظة الالاجية وهو قماش له خطوط ملونة من الحرير والقطن .

وجاء في ترجمة باسبار السكري :

" فقال خلوه ماسك الدرب مالان ، فقعدني وترك له قميص أزرق وثوب معصفر (٣٦) .
وجاء في هوامش الكتاب أن معصفر أي مصبوغ بالعصفر وهو نبات ذو لون أصفر وجاء في كتاب العربية في السودان .

" وفي السودان نوع من الثياب ينتطق خاصة كالفرح المحلاوي وهي من الخز المخطط (٤٠)
وجاء في ترجمة أبو إدريس الشيخ محمد بن الشيخ دفع الله بن مقبل العركي عندما وضعت فاطمة أم حسين ولدا وجاء ليريقه (٤١) .

" فلما وصل الشيخ إدريس أدخلوه علي المولود وأخرجوا النساء .. فأنخل أصبعه في فمه فنبع منه اللبن وقيل ملص القميص وتحزم بالفركة (٤٢) .

أدوات وأنواع الطعام والشراب :

جاء في ترجمة إدريس بن محمد الأرياب الذي اشتهر بالكرم :

" يقال أن قداحته ستون قدحا والكسرة مديدة يسوطها الفقراء ناس الطريقة ومعهم الخدم في البرام شادين في وسطهم المناطق وصفتها دقاقة بخيصة وخميرة الماء عليها مثل الفلفل تارة تكون بالملاح وتارة بالماء (٤٣) .

وجاء في حواشي المتن في توصيف هذا الطعام أن الكسرة هي الخبز المصنوع من عجينة الذرة والذي يُعَمَلُ معظم غذاء أهل السودان ، والكسرة نوعان عَصيدة غليظة ، أو لفائف رفيعة ، وكشفت الترجمة أيضا الأدوات التي استُخدمت مثل القدح والبرام .
وجاء في ترجمة محمد بن عبودي الذي قام مقام أبيه في الورع والتقشف في المأكَل والمشرب :

" ولباسه قميص دمور وفردة دمور ، فراشه الأرض وظله السماء ، درس الرسالة في مكان أبيه وحرص علي قدح أبيه أبو خرس " . (٤٤)
وجاء في الهوامش أن الخرس هو عبارة عن حمالة أو عروة من النحاس يحمل بها القدح الكبير ، والقدح أبو خرس كناية عن كبر حجمه .
وجاء في ترجمة حمد النحلان قال :
" قال شافلين مخلا كبكبيق وملح قعب " (٤٥) .

والمخلا كيس مصنوع من الشعر أو الجلد والكبكبيق هو الحمص (والكلمة تستخدم في العامية والفصحى) (٤٦) وملح القعب يستخرج من وادي القعب في الصحراء الليبية غرب النيل علي خطي ١٥ و ١٩ شمال و ٧ و ٣ شرق .
وفي مجال استخدام النقود وأنواعها جاء في ترجمة المصوي محمد بن محمد أكاوي :
قالو لك ماييكرم العلما .. أداه مائة محبوب (٤٧) .

والمحبوب كما جاء في الهوامش ، " عملة ذهبية اشتهرت في العالم الإسلامي وعرفت بأسماء تختلف من مكان لآخر ، فالمحبوب نقد تركي ضرب في عهد السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٤ - ١٧٠٣) بوزن قدره أربعون جنيها وكان يعرف في البلاد العربية بزر محبوب " وزر معناها الذهب بالفارسية ومحبوب اسم أحد المماليك عاش حوالي (١٦٩٨ - ١٢٩٩) وقد قام بضربه في ذلك الحين .

وجاءت امرأة عاقر من ناس قري فعزم لها فولدت ولدا فجاءت تزينه عنده وجابت معه مائة أشرفي فضة (٤٨)

والأشرفي كما جاء في الهوامش دينار من الذهب في مصر المملوكية في عهد السلطان الملك الأشرفي بارسبائي (١٤٢٢ - ١٤٣٨) وهو دينار من عيار مرتفع ووزنه درهم وهو من أجود الدنانير المملوكية الجركسية (٤٩) .

وفي نطاق استخدام الأدوات الحربية بجانب (العكان) السلاح التقليدي المصنوع من الأخشاب وفق نوع ومتانة الأشجار المتاحة في المنطقة ويحسبها الباحث السنط والخيزران ، جاء في ترجمة عبدالرازق أبوقرون :

" قول نار الدنيا ، وكان الأمر كما كان قال : وانعكست عليه البندق وكانت سبب موته (٥٠) . وهذه دلالة علي معرفة ذلك العصر بالسلاح الناري (البندقية)
وجاء في ترجمة قش بن سدر :

" وشدوا له ناقته وعلقوا سيف وحقبا وخرجه " (٥١).

ولعل السيف هنا دلالة علي معرفة أهل ذلك العصر بصناعة السيف خصوصا أن أهل السودان عرفوا صناعة الحديد منذ الحضارة المروية ومن المحتمل أن تكون للسيوف تجارة متبادلة خصوصا أن كثيرا من الدراسات أشارت إلي دور التجارة الخارجية في مملكة الفونج حيث لعبت دورا فعالا في السياسة السودانية في عهد مملكة الفونج فساهمت في خلق المدن وربط أجزاء المملكة (٥٢) ، وليس من المستبعد أن يكون وجود سلاح ناري كالبندقية قد جاء كأحد الهدايا إذا ما علمنا أن أحد ملوك سنار أرسل جيادا لوالي اليمن طلبا لحسن الجوار ، فبادله الوالي بإرسال هدية من البن اليمني تحققا بذلك رغبته (٥٣) .

وفي نطاق النظام الزراعي في ذلك العصر والأدوات المستخدمة في فلاحه الأرض ، جاء في ترجمة إسماعيل بن جابر :

" وبلغ من ورعه أنه لا يستعمل ما جاء من جداول الشايقية وقال جرارقههم مغبوبة من الناس (٥٤) .

وجا في الهوامش أن جرارقههم ومفردها جرق وهو الثور المدرب علي العمل في السواقي وهذه الكلمة ليست بعربية (وقد تكون اللفظة نوبية) (٥٥) . وجاء في ترجمة محمد الهميم :

" وبعدها تجيك الدنيا والدين وتسكن أرضا يقال لها النادرة سلوكة " (٥٦) .

وجاء في الهوامش أن : السلوكة من أدوات الزراعة المطرية أو الجروف واستعمالها كناية عن أن الأرض خصبة سهلة الزراعة وفيرة العطاء (٥٧) .

وفي الأدوات التي أشار إليها الكتاب في مجال الأوزان والمكاييل ما جاء في ترجمة حامد اللين بن الفقيه سليمان :

" قال : قلت له الناس ، قالوا :

الفقيه عند أربعة وبيات محقات " (٥٨).

والوابة مفرد وبيات وهي معيار كيل .

وجاء في ترجمة خليل بن بشاره الدويحي :

" يعمل طعامه وشرابه بيده عنده فندق يدق عشاؤه وغداه فيه " (٥٩) .

والفندق وعاء مجوف من خشب الحراز وغيره تطحن فيه الحبوب إذا كان كبيرا والبهارات إذا صغر .

عرف عصر الفونج تخطيط المدن وهندسة البناء فقد جاء في فاتحة الكتاب :

" أعلم أن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها في أوائل القرن العاشر سنة عشر بعد التسعمائة ، وخطت مدينة سنار خطاها الملك عمارة بونقس ، وخطت مدينة أربجي قبلها بثلاثين سنة خطاها حجازي بن معين (٦٠) .

وقد وصفت مدينة أربجي التي تبعد ميلين جنوب الحصا حيا بأنها :

" قرية كاملة الحسن والبنيان، مليحة العمارة والتجارة أديبة في الماكل والشرب وفيها أناس

صالحون ومدارس وعلم وقرآن وفيها عجائب من حضرها (٦١) .
وفي ذكر أسماء المدن وأسباب نشأتها وثق الكتاب كثيرا من أسماء المدن السودانية مثل الخرطوم ، أم درمان ، الكاملين ، الدامر ، الجزيرة اسلنج ، نوري ، سوبا ، الدبية ، التي ، أبو مغد ، مرنجان ، الدية ، حلفاية الملوك ، وجاء في ترجمة حمد بن محمد بن علي المشتهر عند الناس بأمه مريم :

" اللهم أجعل باطنك مثل ظاهره فأصابه برص عم جميع جسده ودعا علي أولاد عجيب والفتح الخرطوا حلته ألفي أمدرمان" (٦٢) .

ولعل هذه الإشارة من أقدم الإشارات لمدينة أم درمان وقد زعمت بعض الروايات (٦٣) عن أصل الرسم مايفيد أنها نشأت قبل السلطنة الزرقاء وعن مدينة الخرطوم جاء في مقدمة ترجمة حمد بن عبدالرحيم المشهور بحتيك المحس المشيرفي (٦٤) أنه ولد بالخرطوم ولعلها أقدم إشارة في مصدر عربي عن الخرطوم ، وعن ذكر مدينة الدامر جاء في ترجمة حمد ابن المجنوب (٦٥) أن قبره بالدامر وقد اشتهرت في عهد الفونج بأسيرة المجنوب أو المجاذيب المشهورين بالعلم والصلاح .

وفي ترجمة حلاوي بن جمال الدين الحجاجي (٦٦) أنه ولد بالكامينين ، والكاملين هي الصيغة الحديثة وأصل الكلمة من كمن وأنها سميت بذلك الاسم لتعذر رؤيتها من بعيد لوقوعها في منخفض وفي المدن التي ذكرها الكتاب ماجاء في ترجمة محمد بن داود الأغر العودي أنه ولد بالدبية بين ألتى وأبو مقد ، والدبية هي دببية المحس وتقع غرب النيل الأزرق بين أم ضبان والعسيلات وألتى قرية شرق النيل الأزرق قبالة مسيد ودعيسي وأبو مقد تعرف الآن بأمر مقد وقبل ذلك كانت تسمى أم قد (٦٧) .

من المظاهر الهامة التي وثقها الكتاب في مجال الآلات الموسيقية والاحتفالات ماجاء في ترجمة الشيخ محمد المهيم :

" فإن الشيخ بان النقا من السنة إلى السنة يجي لزيارته وإذا دخل في سنار لشفاعة يقوم معهم ، والشيخ عجيب أول مايدخل وعمر المندرة يمنع من ضرب النقارة (٦٨) .

ولعل ضرب النقارة هنا إشارة إلى شكل من أشكال الاحتفالات حيث نعلم أن النقارة آلة إيقاعية يرافقها الغناء والرقص والتصفيق ولم ترشد إشارة إلى استخدام النحاس مثلا ، ومن الآلات الموسيقية التي ورد ذكرها ربابة الشيخ إسماعيل كما عرف ذلك العصر الدلوكة في ترجمة الشيخ سلمان الزغرات .

ومن المظاهر التي أرخ لها الكتاب الأمراض الشائعة وطرق علاجها فقد جاء في ترجمة موسي ولد يعقوب الفضلي الوثيقي :

" ومنها أن المزين يزينه فشاف فيها عواوير فقال له : جلدي قامن فيهو عواوير فقال له : إن شاء الله بارد ياسيدي فقال له : البارء شنو فقال له : استشررت ياسيدي فقال : والله أنا مامن من أهله: فقال العوار طرطر ، تخرج من جسمه في الوقت والحين" (٦٩) .

والعواوير هي البثور أو الأكياس الدهنية التي تظهر في بدن الإنسان وطرطر أي تجمعت رؤوسه وإستدارت إيداناً بالإنفجار والشفاء ، وفي علاج الأمراض المستعصية كالجنون ماجاء في ترجمة محمد قبلي بن الحاج حبيب أنه كان يداوي مرض (الغزالة) أي الجنوب بالقراءة ، وجاء في ترجمة إدريس بن محمد الأرياب :

“ أخبر مطايب زوجة ولده حمد قالت له : ياإياه هذا اليوم أصبحت مرضانة من وجع الوتاب ، قال لها: ماهو وتاب (٧٠) .

وجاء في الهوامش أن الكوفار ، والوتاب معناهما واحد - وهو يطلق علي الحالة التي تنتج عن الانقطاع من الأكل فجأة لمدة من الزمن ، فيشعر الإنسان بفتور عام وعدم شهية للأكل ، فكل ذلك نتيجة التوقف عن الأكل أو سوء التغذية ، والصفة من الوتاب أو الكوفار موتب أو مكوفر وطريقة علاجه العادية بالإكثار من شرب السوائل كالأبري والسورج والعريدب والكسرة المرة أو الفصد (٧١) .

لم يغفل الكتاب أن يؤرخ للأحداث الهامة كسنة الجدري في سياق الترجمة لإسماعيل صاحب الربابة ، ونجيع أم لحم في سياق الترجمة لأبي القاسم الجنيد وهي سنة مجاعة وباء شديدين وقد حدثت عام (١٠٩٩ - ١٦٨٨) ويصفها المؤلف في سياق ترجمته للشيخ ربراهيم بن الشيخ صغيرون بقوله :

“ وتوفي سنة تسعة وتسعون بعد الألف سنة النيل اللم الناس من أم لحم بمدينة سنار ” (٧٢) .

ولم يسكت الكتاب عن معرفة نساء عصر الفونج لوظائف المشاطة (٧٣) ودهن الشعر بالزبدة (٧٤) واستخدام الحلي كالسوميت (٧٤) وأبيق الذهب فقد جاء في ترجمة محمد بن الشيخ عبدالله الطريقي :

“ فربيت شعري رأسي وربطت فيه الجلاذ (٧٥) .

ويقول بروفيسور يوسف فضل في شرحه للجلاذ :

“ نوع خاص من الجد ذو رائحة نكية ، قيل من جلد الغزال أو القطط البري تلبسه النساء في الجرتق والرجال أحياناً لنفس الغرض (٧٦) .

ومازال الجلاذ يستخدم في مناطق واسعة من السودان ولايستبعد أن تكون هذه التقاليد ذات تأثير نوبي قديم فأصل كلمة الجرتق جوتكو (JUARTIKOO) النوبية فقد جاء في ARMBRUSTER DIE مايلي :

“GERT . N. ORNAMENT(BRAELET NEE KLAEE WORN BY EITHER SER-
RAL CIRCUMCISION AND MARRIAGE)” (٨٠) .

والتي تترجم إلي أن جرت اسم : عقد وميزات تلبس بواسط العريس من الجنسين في المناسبات والزواج ، بينما عرف دكتور عون الشريف قاسم جرتق بقوله :
“ عادة من عادات الزواج ينتهي بها العرس والفعل جرتق (٨١) .

نخلص إلى أن مكانة الكتاب في تاريخ الثقافة السودانية بكل تعريفات الثقافة ومدلولاتها وخصائصها كجماع الإرث الاجتماعي الذي يتضمن كل إبداعات أية جماعة إنسانية في حقول الآداب والفنون والعادات والدين وشتي الممارسات الحياتية التي تنتقل إلى هذه الجماعة ، سواء بالتعليم أو الاكتساب ويظل أفق مكانة الكتاب مفتوحا كمدون يمكن للباحث الفولكلوري أن ينظر فيه علي كل المستويات كما قال الدكتور محمد الجوهري :

" أن يقارن بين الحوادث التاريخية الماضية والنماذج الثقافية المادية والشفاهية الموجودة في العصر الحاضر (٨٢) .

والكتاب وهو يصنف داخل أنواع المدونات أو المؤلفات ذات الطبيعة الدينية إلا أنه يتضمن إشارات تاريخية رغم أنه لم ينهج منهاجا تاريخيا محددًا في تحقيق موضوع مادته إلا أنه انتسب إلى النوع الثاني من تصنيفات المصادر التاريخية وهي كتب التراجم أو كتاب الطبقات ، جامعا بين هذا التقليد وبين الجغرافيا والمعارف العلمية والوقائع اليقينية بجانب الفنون القولية من كلمة ومثل ، ففتح الباب علي مصراعيه لتسجيل المعارف والمعتقدات السائدة في عصره مما أكسبه صفة الموسوعية التي تتناثر في ثناياها الحقائق والخوارق والأساطير والاقتراسات من الثقافات المختلفة التي ميزت المجتمع السناري (١٥٠٥ - ١٨٢١) الذي عرف عن تكوينه الأثنولوجي أنه ضم عدة أقوام مختلفة تتصف بمميزات ثقافية مختلفة مثل العبدلاب ، العنج ، الفونج ، الدناقلة ، البرتة ، الشايقية والعرب البدو (٨٣) بالإضافة إلى الفموض الذي اكتنف أصل الفونج وتوسعهم الذي قادهم إلى سنار .

الهوامش :

- (١) عبدالمجيد عابدين : دراسات سودانية (مجموعة مقالات) دار التأليف والترجمة والنشر ، جامعة الخرطوم ، الطبعة الثانية ١٧٢م ص ٦٨
- (٢) يوسف فضل حسن " بعض مظاهر كتابة التايخ في السودان الحديث " مجلة الخرطوم ، العدد ٤ يونيو ١٩٧٩م ص ٦٨
- (٣) Mac Michael; H. A History of The Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922. Vol. 2, (Arab) P. P 2 217 - 323
- (٤) S. Hilleson : " Tabagat Wad Dayf Alla : Sudan Notes Records (٤) (SNR) . Vol. I, 1923 . PP 191- 230
- (٥) مد المكي إبراهيم الفكر السوداني أصوله وتطوره إدارة النشر الثقافي : مصلحة الثقافة : الخرطوم ١٩٧٦م ص ٥
- (٦) دالمجيد عابدين تاريخ الثقافة العربية في السودان دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧م ، ص ١٨.
- (٧) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : تحقيق د. يوسف فضل : دار الطباعة جامعة الخرطوم ، الطبعة الأولى : ١٩٧١ : ص ٢
- (٨) يوسف فضل " المصادر السودانية الأولية قبل المهدية ، مجلة الدراسات السودانية : شعبة أبحاث السودان، كلية الآداب - جامعة الخرطوم العدد الأول ، المجلد الثالث - أكتوبر ١٩٧١م ص ٣٩
- (٩) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : مرجع سابق : ص ٤٥
- (١٠) نفسه ص ٤٦
- (١١) نفسه ص ٣٤
- (١٢) نفسه صفحات ٢٢ - ١٦٢ - ١٩٣ - ١٧٧ - ١٧٩
- (١٣) نفسه ص ٤٤
- (١٤) نفسه ص ٣٤
- (١٥) الهادي الصديق : أصول الشعر السوداني المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون ، الطبعة الأولى : ١٩٧٣ ص ٢ - ٨٣
- (١٦) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : ص ٤
- (١٧) عبدالمجيد عابدين : مرجع سابق ، ص ٧٠
- (١٨) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : ص ١٨٢
- (١٩) نفسه ص ١٨١
- (٢٠) نفسه ص ١٧٩
- (٢١) نفسه ص ٤٠
- (٢٢) نفسه ص ٧٩

- (٢٣) نفسه ص ٨٣
- (٢٤) قيصير موسي " الفولكلور السوداني الموضوع المنهجية المدارس واتجاهات المدارس . مجلة الخرطوم ، العدد ١٤ ، ١٩٩٥ م ص ٢٢
- (٢٥) محمد النور ضيف الله كتاب الطبقات : مرجع سابق ص ٢٢
- (٢٦) نفسه ، ص ٨٨
- (٢٧) نفسه ص ٩٦
- (٢٨) نفسه : ص ٣٠٥
- (٢٩) عبده بدوي : الشعر في السودان : سلسلة عالم المعرفة ، العدد ٤١ ، الكويت المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مايو ١٩٨١ م / ص ٢٥
- (٣٠) عبد الهادي الصديق: مرجع سابق، ص ٢٧
- (٣١) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات ص ٣٢٧
- (٣٢) نفسه : ص ٣٣٣
- (٣٣) عبده بدوي : مرجع سابق ص ٢٦ - ٢٧
- (٣٤) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : مرجع سابق : ص ١٠٨
- (٣٥) نفسه : ص ١١٠
- (٣٦) شيخ عبد الله عبدالرحمن الأمين : العربية في السودان دار الكتاب اللبناني بيروت / ط ٢ / ١٩٦٧ م ص ٢٤
- (٣٧) بعد مولد الطفل وقبل أن يتناول أي طعام يطالب أهله ممن يتوسمون فيه حسن الخلق والفلاح أن يريق أو يحتك طفلهم بأن يمضغ ثمرة جيداً ثم يدخلها في فم الطفل ويضغطها على لثته أو يدلكها بها توسماً أن يرتبط مستقبل الطفل بالرجل الخير ، وقد روي الإمام مسلم (صحيح مسلم ١٢٣١٤ - ١٢٧) أحاديث كثيرة عن استحباب تحنك المولود عند ولادته .
- (٣٨) محمد النور ضيف الله ، كتاب الطبقات ص ٦٨
- (٣٩) نفسه : ص ٥٦
- (٤٠) نفسه ص ٣٢٣
- (٤١) نفسه ص ١٦٦
- (٤٢) عون الشريف قاسم : قاموس اللغة العامية في السودان ، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ١٩٧٢ م ص ٣٤٢ - ٣٤٣
- (٤٣) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات ص ١٠٣
- (٤٤) نفسه ص ٩٨
- (٤٥) نفسه : ص ٣٠٣
- (٤٦) نفسه : ص ٣١٤
- (٤٧) أنظر جعفر طه جمزة : الاتحاد السناري التكويني والتطور السياسي في سلطنة سنار : مجلة الثقافة السودانية العدد ٨ السنة الثانية نوفمبر ١٩٨١ ص ١٦
- (٤٨) عوض السيد الكرسي : دور التجارة الخارجية في مملكة الفونج ، مجلة الثقافة السودانية ، العدد ١٩ ، السنة الخامسة ، نوفمبر ١٩٨١ م ، ص ١٦

- (٤٩) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : مرجع سابق : ص ٤٧
- (٥٠) عون الشريف قاسم : مرجع سابق : ص ٢١٦
- (٥١) محمد النور ضيف الله : كتاب الطبقات : مرجع سابق : ص ٣٢١
- (٥٢) نفسه ص ٢٢١
- (٥٣) نفسه ص ١٨٢
- (٥٤) نفسه ص ٢٠٤
- (٥٥) نفسه ص ٣٩ - ٤٠
- (٥٦) نفسه ص ٣٩ (نقلا عن كاتب الشونة)
- (٦٠) نفسه ص ١٨٠
- (٦١) محمد إبراهيم أبوسليم : تاريخ الخرطوم : دار الجيل بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٧٩ ، ص ٨٤
- (٦٢) محمد النور ضيف الله كتاب الطبقات : مرجع سابق : ١٨١
- (٦٣) نفسه : ص ١٨٨
- (٦٤) نفسه ص ١٨٣
- (٦٥) نفسه (هوامش) ص ٣٢٢
- (٦٦) نفسه : ص ٣٢١
- (٦٧) نفسه : ص ٣٢٥
- (٦٨) نفسه ص ٦١
- (٦٩) نفسه (هوامش) ص ٦١
- (٧٠) نفسه ص ٧٦
- (٧١) نفسه ص ٣٢٥
- (٧٢) نفسه ص ٣٢٥
- (٧٣) نفسه ص ٣٢٥
- (٧٤) نفسه ص ٣٢٦
- (٧٥) نفسه ص ٣٢٧
- (٧٦) نفسه (هوامش) ص ٣٢٧
- (٧٧) Charles Hubert Armbruster : Dongolese Nubian Alexica Cambridge Univ. Press , 1965, p. 88
- (٧٨) عون الشريف قاسم : مرجع سابق ، ص ١١٩
- (٧٩) مد الجوهري علم الفولكلور : دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية دار المعارف الطبعة الاولى ١٩٧٥م، ص ٤٢٣
- (٨٠) جعفر طه حمزة : مرجع سابق ص ٥١